تقديم المراجع

يسعدنا أن نقدم إلى القارئ العربى كتابًا جديدًا عن ثورة مسلمى إسبانيا فى الفترة ما بين عامى ١٥٦٨-١٥٧٠، احتجاجا على الاضطهاد الذى تعرضوا له على يد السلطات الكاثوليكية الحاكمة، بعد أن نقضت تلك السلطات معاهدة تسليم غرناطة التى وقعها الملكان الكاثوليكيان فى نوفمبر عام ١٤٩١، وهى فترة لم يلتفت إليها المؤرخون العرب كثيرًا، والسبب فى ذلك جلى واضح: فوثائق تلك الفترة كلها إسبانية اللغة، اللهم إلا رسالة هنا أو هناك موجهة إلى سلطان مسلم فى تركيا أو مصر، أو بعض فقرات وردت فى كتاب.

كنا قد ترجمنا منذ سنوات كتاب أورتادو دى مندوثا[1]، وهو - كما سيرى القارئ - أكثر موضوعية من الكتاب الذى نقدم له، نظرًا لمكانة مندوثا وطبيعته الثائرة التى تأبى الضيم. ثم ترجمنا كتابًا آخر -"الحرب ضد الموريسكيين" لبيريث دى إيتا[2] - هو أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ. أما هذا الكتاب فهو أكثر انحيازًا إلى وجهة النظر الرسمية، (عنوان الكتاب يؤكد أن موقف مارمول واضح تمامًا) وحاز شهرة واسعة، وصار عمدة المؤرخين الإسبان وغيرهم عند الحديث عن ثورة الموريسكيين. ربما كان هذا الانحياز هو الذى صادف هوى فى نفوس المؤرخين الإسبان القدامى،

(١) حرب غرناطة" تأليف أورتادو دى مندوثا، ترجمة إيمان عبد الحليم وسلوى محمود، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨

(٢) "الحرب ضد الموريسكيين" تأليف بيريث دى إيتا، ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩

وهو الذى أدى – بالتالى – إلى أن يحتل مكانة لا نرى أنه يستحقها. هناك عامل آخر دفعنا إلى ترجمة الكتاب، هو أنه يتضمن بعض وثائق لا نجدها فى كتاب آخر.

بصدور هذا الكتاب نضع أمام المؤرخ العربى وجهات نظر متعددة، يكمل بعضها بعضًا، ونقدم قاعدة مكتملة لدراسة وقائع ثورة الموريسكيين، ذلك أن الكتب الأخرى التى عالجت الموضوع – وهى كثيرة ووافرة – لم تخرج عن نطاق الكتب الثلاثة التى صدرت عن المركز القومى للترجمة.

مؤلف الكتاب من مواليد غرناطة عام ١٥٢٠ وتوفى نحو عام ١٥٩٩ فى بلش مالقة، هذا معناه أنه ولد وعاش فى أجواء المشكلة الموريسكية وشهد تطوراتها. وكان أبوه كاتبا بمحكمة غرناطة (هذا عامل آخر من عوامل اقترابه من أبعاد قضية الموريسكيين) اشترك فى الحملة على تونس عام ١٥٣٥ وأمضى اثنين وعشرين عامًا فى إفريقيا، منها ثمانية أعوام قضاها أسيرًا فى الجزائر. كان من المعتاد أن يعود الأسير إلى إسبانيا ويقدم تقريرًا إلى محكمة التفتيش يؤكد فيه أن إيمانه الكاثوليكى لم يتزعزع خلال فترة الأسر، لكن مارمول لم يفعل ذلك. ربما لهذا السبب (ولأنه ابن لزوجة غير شرعية، قد تكون زوجة ثانية) اتهم بأن أصوله موريسكية. خلال ثورة الموريسكيين، عينه الأمير خوان دى أوستريا مفتشًا على مشتريات الجيش الإسبانى، لهذا أتيح له أن يتابع تطورات الحرب ضد الموريسكيين عن قرب. بعد إخماد الثورة استقر فى غرناطة وبدأ فى وضع كتابه عن إفريقيا، أما الكتاب الذى نقدم له فقد نشر عام ١٦٠٠، أى بعد وفاة المؤلف بعام واحد.

قضى مارمول نحو اثنين وعشرين عاما فى إفريقيا، وهو ما يوحى بأنه كان يجيد اللغة العربية كأهلها، ومع ذلك فإننا نتساءل: هل كان مارمول كارباخال ملما باللغة العربية؟ أكاد أجزم بالنفى، على ضوء الأخطاء غير المقبولة فى ترجمة أسماء المدن والقرى التى يوردها. إذا كان الأمر كذلك، فمن أين جاء بالترجمة الإسبانية الدقيقة لشواهد قبور سلاطين بنى نصر؟ ربما كانت الترجمة من عمل ألونسو ديل كاستيو أو

ميغيل دى لونا وهما موريسكيين كان لهما حظ وافر من الثقافتين العربية والإسبانية، وكان لهما دور ثقافى واضح خلال القرن السادس عشر. توصلنا إلى شاهدى قبرين أوردهما ابن الخطيب فى "الإحاطة"، لكن البحث عن الشاهدين الآخرين أعيانًا دون أن نتوصل إلى نتيجة. عموما فالموضوع يغرى بالدراسة لأنه يتعلق بمستوى الدراسات العربية فى إسبانيا خلال القرن السادس عشر، وما له من صلة وثيقة بالحروب التى كانت إسبانيا تخوضها ضد الشمال الإفريقى الذى تدعمه قوات عثمانية.

قضية أخرى يثيرها الكتاب هى قضية أسماء المدن والقرى الصغيرة، وقد اجتهدنا فى التوثيق ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. رجعنا بطبيعة الحال إلى دراسات محمد عبد الله عنان[١] وحسين مؤنس وغيرهما من المؤرخين العرب، لكن هذه الدراسات تقتصر على المدن الكبرى ولا تفى بالحد الأدنى الذى ينتظره القارئ منا. طالعنا نصوصا تاريخية قديمة لابن الخطيب وابن خلدون والمقرى، ونصوصًا أخرى مجهولة المؤلف مثل "نبذة العصر"، فأدركنا أن اسم البلدة قد يختلف من مؤلف إلى آخر مما يجعل عملية البحث صعبة. كان من الطبيعى أن نتجه إلى الدراسات الإسبانية الحديثة، وهنا توصلنا إلى نتيجة مفادها أن الاسم الإسبانى كذلك لم يخل من تحريف على مدى الزمن. إن قرية بيناكى على سبيل المثال قد ورد اسمها بيناكيث فى مصادر مسيحية، كما ورد بصيغة بيناتى فى مصادر أخرى[٢] ها نحن نرى أن القرية الواحدة لها ثلاثة أسماء فى المصادر الإسبانية، وقد رأينا الشيء نفسه يحدث فى المصادر العربية.

(١) محمد عبد الله عنان: "الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية..."، منشورات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧٦

(٢) Gozalbes Gavioto "La transformaciín de la alquería en la Axarquia malagueña..."en Isla de Arriaran, XVIII, 2001, pp. 13-30

فى أثناء البحث وقعنا على مفاجأة غير سارة بالمرة: ما زلنا بحاجة إلى فهرس كامل للأعلام الجغرافية الأندلسية وفقا للمصادر العربية وذكر ما يقابلها فى الإسبانية. صحيح أن بعض الباحثين كتبوا شيئًا من هذا القبيل: د. محمد عبد الله عنان، وسيمونيت، لكنها دراسات جزئية لا تفى بالمطلوب. يوقظنا سوط الوقت عن الاستغراق فى البحث، فنكتفى بذكر اسم المدينة أو القرية كما ينطق فى الإسبانية الحالية، مع إدراكنا التام أن الموضع المذكور كان له اسم عربى فى فترة غير بعيدة عن زمن الأحداث. على أى حال فقد وضعنا الاسم بالإسبانية أمام العربية فى أول مرة تجنبًا للخلط بين الأسماء.

لا ينبغى أن يظن القارئ أن أسماء المدن كلها فى العصر الأندلسى كانت عربية، فقد نزل الفاتحون المسلمون على شعب كانت له مدائنه وقراه، واكتفوا بتعريب اسم البلدة، أو إيجاد أقرب نطق له بالعربية، أما المدن التى أسسوها فمن الطبيعى أن تكون أسماؤها عربية خالصة.

مهمة إعادة كتابة الأسماء العربية للمدن الصغيرة والقرى فى الأندلس ليست مستحيلة: هى فقط صعبة وتتطلب جهدًا ووقتًا، إذ يتعلق الأمر بالرجوع إلى المصادر العربية، وإلى دراسات الباحثين الإسبان الحديثة التى تستند إلى مخطوطات لم تكن متاحة منذ سنوات.

يشير مارمول إلى أنه استقى بعض معلوماته عن مؤلفين عرب، ويذكر اسم ابن رشيد على وجه التحديد، وقد أعيانا البحث عن ابن رشيد هذا، وظننا أنه ابن رشيد القيروانى (٣٩٠ – هـ ٤٥٦) صاحب كتاب "العمدة" ، لكن كتابًا وقع بين أيدينا – هو "وصف مملكة غرناطة" لسيمونيت(*)– أراحنا من عناء البحث، فقد ذكر المؤلف صراحة أن مارمول اعتمد على كتاب الرازى، صاحب "الروض المعطار"، وهو كتاب اعتمده

(*) Simonet Descripción del reino de Granada, Madrid, 1860.

المؤرخون العرب فيما بعد مثل ابن الخطيب وابن خلدون والمقرى. لكننا لا نطمئن كثيراً إلى اسم الرازى ولا إلى ابن الخطيب بوصفها مصادر لكتاب مارمول، فالكتاب يتحدث عن أمور وقعت بعد عصر الرازى بكثير، بل بعد وفاة لسان الدين بعقود، وبالتالى فمن الواضح أن مؤلفنا اعتمد على مصدر عربى لم نتوصل إليه حتى الآن. إذا وضعنا فى الاعتبار أن مارمول لم يكن يجيد العربية (هذا واضح من أخطائه فى ترجمة معانى أسماء المدن، وإن كان أمضى عقدين كاملين فى بلاد العرب) فمن المؤكد أنه اعتمد على ترجمة مكتوبة، فأين يمكن أن نبحث عنها؟ مصادر مارمول تمثل موضوعًا يغرى بالبحث، لكننا نفيق من استغراقنا فى البحث مرة أخرى على سوط الوقت يلهب ظهورنا، وندرك أن أمامنا موعداً لا يجب أن نخلفه، فنقدم الكتاب إلى المطبعة، ويحدونا الأمل فى أن يكمل المهمة باحث عربى ظروفه أفضل.

يجب أن نتوقف كثيراً عند بعض فقرات توردها كتب التاريخ، فقد يضع المؤرخ على لسان شخص ما عبارة لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه. لعل المثل الأكثر وضوحاً نجده فى تلك الخطبة الشهيرة التى نسبت إلى طارق بن زياد، وهى خطبة فصيحة لا يمكن أن تصدر عن قائد حديث عهد باللغة العربية. فى هذا الكتاب الذى نقدم له نجد عبارة منسوبة إلى أم الملك المسلم حينما رأته يبكى إذ قالت له" ابك مثل النساء ملكًا لم تدافع عنه كالرجال". إن سير الأحداث يوضح أن الملكة الأم شهدت ابنها وهو يدافع بكل ما يستطيع، وهى تعلم يقينا أن سقوط غرناطة لم يكن بسبب ابنها[1]، بل بسبب مجموعة عوامل بدأت قبل أن يولد، وبالتالى نستبعد أن توبخ ابنها.

---

(١) المطالع لتطورات الأحداث التى سبقت سقوط غرناطة يدرك أن أبا عبد الله الصغير قد جاهد قدر استطاعته، بل إن اتفاقية تسليم غرناطة كانت نتيجة مفاوضات عسيرة أدارها شخص حريص على مستقبل الأندلسيين، وكثير من المؤرخين الإسبان يحاولون إنصاف أبى عبد الله، لكن مؤرخينا يصرون على إلقاء اللوم عليه وكأنه هو الذى أضاع الأندلس.

نفتقد في كتاب مارمول وصفًا للحمة غاليرا، وكيفية هروب الموريسكيين ليلاً، بعد أن تنكر أحدهم في زى جندى مسيحي. نفتقد كذلك الجانب الإنسانى فى الأحداث، مثل قصة التوزاني الموريسكي الذى انتقم من الجندى الذى قتل حبيبته، ولم يجد القائد المسيحى بدًا من أن يغفر له فعلته، بعد أن تفهم الموقف. لا نجد فى الكتاب كذلك أية قصيدة شعبية تمنح النفس راحة وسط هذا الكم من الحروب والمآسى (كل هذا نجده عند بيريث دى إيتا. ألم أقل إن كتابه أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ؟)

الشيء الذى نجده هنا ولا نجده هناك هو هذا الكم من الأفعال الوحشية التى يقول مارمول إن الموريسكيين ارتكبوها. إن من يتوقف عند وصف تلك الأفعال يدرك أن المؤلف كان يستخدم عبارات مكررة، وهو ما قد يوحى بتعميم حالات فردية أو بالمبالغة. قد يكون من المناسب أن نحاول الاقتراب من الهدف الذى كان يسعى إليه مارمول من هذه الصفحات. لقد نشر الكتاب عام ١٦٠٠ ، حين كانت المشكلة الموريسكية أشد ما تكون احتداماً، ولعل إحدى الجهات كانت وراء نشره لكى تدعم قراراً تريده أن يصدر.

اتبعنا فى ترجماتنا لكتب التاريخ الموريسكى كتابة الاسم العربى للمدينة حتى سقوط غرناطة، والتزمنا فى الفترة اللاحقة بكتابة الاسم الحديث كما ينطق فى اللغة الإسبانية، أما فى هذا الكتاب فقد كتبنا الاسم العربى للمدينة أو القرية كلما كان ذلك ممكنًا للسبب الذى نسوقه الآن. عندما أشعل الموريسكيون ثورتهم أرادوا أن يعودوا إلى ثقافتهم العربية التى حرموا منها طويلاً، من حيث أسماء الأشخاص والمدن والقرى. واحترامًا لتاريخ الموريسكيين ورغبتهم عمدنا فى هذا الكتاب إلى كتابة الأسماء العربية خلال فترة الثورة. لم يكن من المناسب أن نكتب اسم البلدة الواحدة بالعربية ثم بالإسبانية ثم بالعربية. لذلك عممنا الاسم العربى على مدى صفحات الكتاب. وحتى لا نسبب إرباكًا للقارئ الباحث فقد كتبنا الاسم بالإسبانية فى أول مرة يذكر فيها.

النص الأصلى ليس به فقرات، مما جعل ترجمته عسيرة إلى حد ما، وقد قسمناه فى اللغة العربية إلى فقرات حتى تسهل قراءته. توخينا الوضوح فى الأسلوب قدر جهدنا، فابتعدنا عن اللفظ الغريب، واللفظ الذى يحتمل أكثر من معنى، ثم أدخلنا لفظ الفاعل عندما كان المؤلف يتحدث عن المسيحيين والموريسكيين معا بصيغة الغائب الجمع، تجنبا للغموض. ورجعنا إلى مصادر أخرى لحل المشكلات التى نجمت عن غموض أسلوب الكاتب فى بعض الأحيان، حين كانت عبارته تحتمل أكثر من معنى.

نترك بين يدى القارئ كتابًا جديدًا يتناول ثورة مسلمى إسبانيا احتجاجًا على سوء أوضاعهم، وهو كتاب يتضمن وثائق جديدة ويعرض وجهة نظر السلطات الرسمية فى الأحداث، ونحسب أنه – لذلك – يمثل إضافة مهمة إلى مكتبة الدراسات الأندلسية والموريسكية.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

جمال عبد الرحمن

القاهرة فى يناير ٢٠١١